

لقاء د. طه مع الجمعية المغربية للتراث

فاس 15 ذي القعدة 1415هـ

### افتتاح د. البوشيخي:

ترحيب - هذه جمعية يرأسها د. علي مفضل حمودان، رئيس سابق لقسم اللغة العربية، الجمعية مكوّنة أساسًا من الجامعيين تخصصات عربية ودراسات إسلامية- همها المركزي: مسألة النص التراثي، وهي تريد أن تهتم به اهتمامًا يليق بمقامه، العناية به مخطوطًا وفي طور الإعداد للنشر، وهو يُحقق، ويُوثق، وهو يُنشر، وهي عناية قد تم الابتداء فيها من حيث الإنجاز ونحن بصدد الانطلاق فيها على شكل محاضرات شهرية لفائدة الأساتذة المعتمني بتأطير مشاهير منهم محمد بنشريفة أُمودجًا.

دراسة المصطلح التراثي، هذا تصور موجود منذ 3 سنوات تم القيام بعده محاضرات وتمت إقامة ندوة كان الهدف منها هو تقويم الجهود التي بذلت حتى الآن -من حيث الرؤى- التكشيف، لتقويم الجهود من جميع الزوايا تكون محاورها متكفلاً بها من لدن باحثين مغاربة وغيرهم يعدّون أوراق في الموضوع تُحصر فيها الجهود التي بُذلت في العالم الإسلامي، ثم يتم الانتقال إلى المرحلة الثالثة أي إنشاء مجموعات بحيث تبتدئ من حيث ينبغي البحث انطلاقًا من التصور الذي تم تحديده في المرحلة الثانية- إعادة الترتيب إحالة الكلمة للدكتور طه جابر والتساؤل عن أوجه التعاون الممكنة.

### د. طه جابر العلواني:

أشكر الأخوة لهذه الدعوة الكريمة. فيما يتعلق بالمعهد واهتمامه بقضية التراث فمنذ اللقاء التأسيس للمعهد وموضوع التراث يشكل بؤرة من بؤر الاهتمام الشديدة في تشعبها وفي إدراك صعوبتها خاصة في إطار ما لا يخفى من تعدد في المواقف حول التراث. فقد توزعت المواقف تجاهه إلى ثلاثة مواقف:

- موقف رافض يدعو إلى القطيعة معه بحجة أنه غير نافع. منهم من يخرج الكتاب والسنة ومنهم من لا يخرجهما.
- موقف التبيّي المطلق، وهو موقف فيه مواقف عديدة ولا يخفى أنه موقف ذو علاقة بالهوية.

- موقف انتقاء عشوائي ينتقي من التراث فتارة ابن رشد وتارة الغزالي وهكذا. وهو انتقاء بحسب حاجة أصحابه وما يعزز موقفهم. وهذا موقف يعطي انطباعاً بأن هؤلاء لهم انتماء وإن كان باهتاً إلى أمة.

في إطار اهتمام المعهد بإعادة بناء نسق ثقافي شامل متماسك لهذه الأمة، بدأ الاهتمام بإعادة النظر في التراث بمقاييس النظر في الكتاب والسنة ومقاييس النظر في كليات الإسلام ومقاصده. غير أنه لوحظ أن أي محاولة لإحياء الشكل العام بدون محددات منهجية ودون مقاصد محددة إنما هو ضرب من الضياع في بحر قد لا ينتهي أو يعود بطائفة على الأمة. كما أن الوصول إلى ما ينتقي ليس سهلاً فذلك يقتضي بدوره منهجاً. وقد جرى التعارف بيننا على ضرورة القراءة المعرفية لهذا التراث ونحن نفهمها على أنها الانطلاق من الكتاب والسنة والنظر من خلالها إلى التراث.

أمر ثانٍ في دائرة القراءة المعرفية وهو ضرورة تقسيم تاريخنا إلى فترات وقد طرحت

اتجاهات في التقسيم:

- بحسب القرون.

- بحسب الدول.

- بحسب الفترات الحضارية.

ولكننا في سائر الأحوال مطالبون بالوصول إلى النموذج المعرفي الكامن وراء إنتاج التراث في مرحلة معينة. مثلاً: إذا أردنا رصد الرازي سوف نحلل أفكاره ونعدّها في 15 فكرة رمزية. لو أنني أسست جمعية لإحياء تراث الرازي سوف نقطع في ذلك أعمارنا.

وبالتالي فلا بد لنا مما أسميناه قراءة معرفية، وإلا فلن نستطيع الإمام بهذا التراث. فالمحددات المنهجية من هنا أمر أساسي إضافة إلى أننا في حاجة إلى تحديد فترات الانقطاع في هذا التراث، وهي الفترات التي توقّف فيها الاجتهاد. ولهذا نجد علومًا نشأت في فترة ثم تبلورت ثم جاءت فترة الانقطاع. مثلاً علم أصول الفقه: بدأ برسالة للشافعي. وهذا لا يعني غياب كتب متفردة من بين هذه الكتب ولكنها قليلة. إذا أردنا إذاً بلورة هذا وتحويله إلى منهج للتعامل مع تراثنا فهذا يعني:

1. بلورة كيف نصدق القرآن والسنة، وإعطائهما القدرة على استرجاع التراث في ضوءهما والأخذ والرد بحسب ذلك.

2. كيف نقسم فترات الإنتاج؟ هل بحسب تحديد مرحلة التدوين. باختصار: تحديد ما هي نقطة بداية الإنتاج. وافترض أننا قلنا أن نقطة البداية هي بداية التدوين فما هي الفترة اللاحقة؟ هل الاجتهاد ثم التقليد، ثم الفردية في الاجتهاد (الشاطبي- ابن خلدون- ابن رشد) أم ماذا؟ فهذا يدل على كوننا محتاجين لنقاش كثير للإجابة عن هذا التساؤل. وهذا لا ينفي أننا يمكن أن نعثر على شذرات في الطريق كمقدمة ابن خلدون. التي كانت كامنة وراء إنتاج العقل المغربي في هذه الفترة- الاستقلال، التعليم، الحداثة، الأصالة. وهذه بدون شك مؤشرات تكشيفية لكل ما أنتج في هذه الفترة.

وإذا صحت المقولات التي تقول أن ثمة 3 ملايين مخطوطة لم تُحقق فهذا يعني أننا لو وجدنا كل المثقفين لتحقيقها لفنت أعمار الباحثين قبل أن يوصل إلى الهدف. ثم من قال بسلامة هذا الإنتاج؟ فلماذا يُتصور أنه سينفعنا وهو لم ينفع أهل عصره؟ لهذا فإن قراءتنا لهذا التراث يجب أن تتم بوسيلة من الوسائل لتحديد ما نريد بالضبط لاستعرض مقولات قصد القيام بالتصفية أمر ضروري إن أردنا أن لا نُستهلك. من هنا بدأت فكرة القراءة المعرفية لهذا التراث التي تعني التصديق على هذا التراث من خلال الكتاب والسنة.

نحن نعرف أنه في عصور معينة كان التراث منحصراً في العلوم الشرعية. ونعرف أيضاً أن هناك عادة من عادات كبار علمائنا حين تريد أن تفحص إنتاج بعضهم تجد أن ثمة مقولات مسيطرة على هذا العالم- الرازي مثلاً: ينسب إليه 250 كتاب وما صحت نسبته 93 مؤلف، وإذا حسبنا عمره نجد أن عليه أن يكتب منذ ولادته 120 صفحة في اليوم، وهذا ضرب المستحيل.

هذا وإنه قد كان من أهداف العلماء إظهار القدرة مما كان يدفعهم إلى تكرار أنفسهم في كثير من الأحيان. فأحياناً يملي الكتاب إملاءً فيكتبه الطلاب ويُعرض عليه.

ويصحح ويضيف، فيقول: قال بعض المحبين "طويل" فيختصر. ثم يقول: قال بعض المحبين "غامض" فيشرح، وهكذا.

إذا رمنا البناء على الصالح من تراثنا فلا بد من بلورة مناهج الكشف عنه. ضروري إذا بذل الجهد في أفق معرفة تراثنا وبلورة منهج لقراءته والتصديق عليه بالقرآن والسنة (المحددات المنهجية) لمعرفة النافع وغير النافع. ثم هناك تحديد فترات التواصل والانقطاع وهذه أمور كلها تحتاج إلى جهد، فضلاً عن الجانب التقني الواسع. عند هذه النقطة نحاول أن ندور. وقد بذلنا في هذا الصدد عدة جهود، وعقدنا عدة ندوات مع متخصصين، غير أننا لازلنا نشعر بضبابية في مناهج التعامل مع التراث. نحن في هذه الدائرة، ما هي أوجه التعاون بين المعهد والجمعية لبلورة المنهج الأمثل للتعامل مع التراث ليكون جزءاً من نسقنا الثقافي المعاصر الذي ينبغي أن نبني عليه مستقبلنا؟

#### د. الشاهد:

##### فتح باب المناقشة:

فقد ختم د. طه بسؤال، وأنا أريد أن أتجاوز حول الأصل: المنهج. لا بد والله أعلم من قسمة التراث إلى:

1. قسم إلهي: المتواتر من الكتاب وهو معدّ للدراسة، السنة البيان إذا اقتصرنا على الصحيح مع استحضار ضابط عرض السنة على الكتاب فنحن نثير أن هذا النص أيضاً إلى حد ما معد للدراسة.

2. الجهود التي قامت على النصين استنباطاً أو بلورة لمناهج لخدمتها إلى غير ذلك من أوجه التعاطي مع الكتاب والسنة من لدن المسلمين.

كل قسم من هذين القسمين يقتضي منهجاً خاصاً به في التعامل. إذا فالجهود الذي يبذل في الاتجاه الأول هو مجهود فهم. فهم المكونات اللفظية أولاً ثم ما سواها، بتعبير آخر: دراسة الدال فالمدلول في إطار المفهوم النسقي الشامل الذي ننتهي إليه ولا نبتدئ منه، ثم ينبنى على هذا دراسة نص السنة. إذا الجهد الأساسي هو معرفة هذا الجزء الذي به نصدق على ما سواه. ثم دراسة عطاء المسلمين.

وأول ما ينبغي فعله في هذا الصنف هو توثيقه. فمنهجياً قبل أن نقول أي كلمة عن شيء فلا بد من إثباته من جهتين:

1. نسبته إلى منتجه.

2. توثيق المتن.

فهناك المبتور والمصحّف ، مما يغيّر صورة النص، وهذا ما يمكن أن نسمّيه الآن الإعداد العلمي للنص، وهذا هو التوثيق ومقتضى القول بالتوثيق الوجود. فما فقد رحمه الله. وما هو موجود صنفان: منشور وغير منشور. وهذا الثاني ملايين. وحول التساؤل عن متى تصل الأمة إلى الإحاطة بكل هذا فنؤجل هذه النقطة.

حالة الأمة أنها تحاول الأوبة إلى موقع الشهادة على الناس، وتتحرك بفهم معين في الواقع من أجل التحقق بهذا المقصد. فمن البداية إذا قمنا بالقراءة المعرفية فسوف تكون انتقائية، وثابت لدينا أن أغلب من يتعامل مع النصوص غير مؤهلين لفهمها من حيث علوم الآلة لتقومه (أي التراث) أو على الأقل إثارة الأسئلة حوله.

لعلنا نأتي على أنه من الضرورات التاريخية المنهجية وجوب خروج النص وإلا سنكون غيبين في تعاملنا مع النص. وحتى تكون الصورة المكوّنة حول التراث صحيحة لذا فالجهد أولاً ينبغي أن ينصرف إلى التوثيق. والتوثيق يقتضي إظهار الموجود. فالانتقاء عملية تأتي بعد الوجود. هل المسلمون فعلاً يشق عليهم الإتيان بهذا الأمر؟ أنا أزعّم أن هذا ممكن إذا حصل توجيه. فنحن مضطرون إلى العودة إلى النص في التطور والانتقاء والتقوم، ولا نستطيع تجاوزه. والتصديق عملية متأخرة ينبغي أن تُسبق بما مضى ذكره.

د. طه جابر:

أودّ التأكيد على البدء ببلورة منهج للتعامل مع التراث. لماذا؟ لأنه عندي تجربة متواضعة كأستاذ لأصول الفقه أشرفت على تحقيق كثير من كتب أصول الفقه في كل من جامعة الإمام سعود وغيرها، فقد حقّقت حوالي 200 من كتب الأصول وأنا أزعّم أنه لم يحدث تقدم في الفكر الأصولي ولا قيد أمثلة رغم تحقيق كل هذه الكتب. ولم أشعر بإضافة نوعية في هذا الفن، البحر المحيط للزركشي اضطر محققوه للإتيان بحوالي 400 مخطوط دُكرت فيه لتحقيقه ولكن مع ذلك لم تكن النتيجة شيئاً كثيراً، لغياب المنهج.

اذكر أن الشيخ عبد الغني عبد الخالق حين عرضت عليه مواضيع تأليفي رفضها ووجهني لتحقيق المحصول في أصول الفقه وقد أخذ مني 8 سنوات أنا استفدت ولكن المحصول موجود في "الآمد" و"المستصفى" و"المعتمد". فلو غاب المحصول لما فقد المسلمون شيئاً. من هنا تتبع ضرورة البدء بالمنهج.

البدء بفرق بحث تقترب من المخطوطات وترى جدوى تحقيقها من عدمه، وتصير هذه الاقترابات مقالات تعريفية بهذه المخطوطات. فالعقبة الرئيسية هي كيف نضع منهاجاً دقيقاً للتعامل مع النص التراثي، وأقترح أن يضمن ما راج في جلستنا هذه في ورقة عمل تقدم في سبيل بلورة منهج للتعامل مع التراث بعد تداولها واستقرار الآراء على صلاحيتها لتكون محور حلقة نقاش ليوم أو يومين، حلقة نقاش مفتوحة لنخرج بمرشد منهجي في مجال التعامل مع التراث فمتى الورقة؟

#### د. الغزبوي:

الوعد بإعداد الورقة وبعثها للدكتور طه.

#### د. إدريس الفاسي:

الندوة المرتقبة تصبح هي الندوة المبنية على الورقة.

#### د. أزوغ:

أود تبيان أن الدراسات الإسلامية الأولى قامت على أساس إسلامي صرف، فالأصلان هما اللذان يصلحان لأن يكون قاعدة للبناء، وما عداهما ينبغي تمحيصه وهنا أضيف أننا حين نضع منهجية من المنهجيات لا بد أن نكون عمليين فقراءة المخطوطة جهد تتلبس به الندوات وقد تؤثر في منهج التعامل معه مما يقتضي وجوب وضع قواعد للتعامل مع النص.

المكلفون بالورقة: د. حجيج، د. أزوغ، د. عبادي.

والحمد لله.